الصحابي خُبَيْب ﷺ، والثاني كان زيد بن الدثنة ﷺ، وكان الذي اشترى خُبيْبا يريد قتله انتقامًا لأبيه الذي قتله خُبيْب يوم بدر. وفي أحد الأيام طلب خُبيْب شفرة للحلاقة، وكان الموسى في يد خُبيْب عندما دخل طفل من أهل البيت واقترب منه في فضول، فأخذ خُبيْب الطفل وأقعده على ركبتيه بحنان. ورأت أمّ الطفل ذلك فأصابها فزع شديد، إذ لم يخطر على بالها إلا كلّ التوَقعات السيئة، فذاك رجل سيقومون بقتله خلال أيام يمسك بشفرة حادة خطرة قريبًا من ولدها، فلم يخطر ببالها سوى أن خُبيْباً يريد قتل الطفل. ورأى خُبيْب الفزع المرتسم على وجه المرأة، وأدرك ما تفكر فيه فقال: "هل تتخيلين أني سأقتل الطفل؟ هل يخطر ببالك لحظة أني أفعل ذلك؟ إنني لا أستطيع أن أرتكب هذا الغدر الدنيء، فالمسلمون لا يغدرون بأحد". وتأثرت المرأة بصدق خُبيْب وأمانته وخلقه القويم، وظلت تذكر هذا دائمًا، وكانت تقول إنها لم تر مطلقًا سجينًا مثل خُبيْب.

وفي نهاية الأمر، قاد أهل مكة خُبيبًا إلى ساحة مفتوحة للاحتفال بقتله أمام الملأ. ولما حانت اللحظة المرتقبة، طلب خُبيْب أن يتركوه ليصلي ركعتين، فوافقت قريش. وتوَجّه خُبيْب إلى الله بآخر صلواته في هذا العالم أمام الجمهور، وعندما سلّم في نهاية الصلاة قال: "والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزعٌ لزدت". ثم أسلم عنقه إلى الجلاد في هدوء، وتمتم وهو يفعل ذلك بهذه الأبيات:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا   على أي شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

ولم يكد خُبَيْب يتم غمغمته بهذه الأبيات، حتى نزل سيف الجلاد على عنقه، وسقط رأسه جانبًا. وكان سعيد بن عامر واحدًا من الحشد الذي حضر هذا الإعدام العلني، وقد صار مسلمًا فيما بعد. ورُوِي أنه كان كلما سمع قصة قتل خُبيب تُذكر في حضوره، كانت تصيبه نوبة من الغثيان.

وأخذوا السجين الآخر زيد بن الدثنة ليقتلوه. وكان أحد المشاهدين هو أبو سفيان؛ سيد مكة. فالتفت إلى زيد وسأله: "ألا يسرك أن يكون محمد في مكانك لنضرب عنقه بينما تكون أنت في أهلك"؟ فأجاب زيد بأنَفَة واستنكار: "ماذا تقول يا أبا سفيان؟ لا والله، ما يسرّني أني في أهلي وأن رسول الله في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه". وبهت أبو سفيان لهذا الإخلاص والحب. ونظر إلى زيد مذهولاً وقال بلا تردد، ولكن في نبرة حذرة: "والله ما رأينا أحدًا يحبّ أحدًا مثل ما يحبّ أصحاب محمد محمدًا". (انظر ابن هشام جزء ٢)

وحول ذلك الأوان جاء وفد من نجد أيضًا إلى الرسول ﷺ يسألونه إرسال بعض المسلمين كي يعلموهم الإسلام. ولم يثق بهم الرسول ﷺ، ولكن أبا البراء سيد قبيلة عامر، تصادف أن كان موجودًا بالمدينة وقتها، فعرض أبو البراء أن يجير الوفد، وأكد للرسول ﷺ أن أهل نجد لن يفعلوا سوءًا بالمسلمين، فاختار الرسول ﷺ سبعين رجلاً من قراء القرآن وحُفّاظه، وأرسلهم مع أبي البراء حتى بلغوا بئر معونة.

ذهب واحد من الرهط المسلم، وهو حرام بـــن ملحـــان ﷺ، إلى عامر بن الطفيل سيد قبيلة بني عامر، ابن أخي أبي البراء، ليبلغه برسالة رسول الله. وفي ظاهر الأمر تم استقباله بترحاب، ولكنه بينما كـــان يخاطب سيدهم، انسل رجل خلف حرام وطعنه برمح فقتله لســـاعته. وبينما كان الرمح يخترق عنق حرام سمعوه يقول: "الله أكـــبر، فـــزتُ ورب الكعبة". (البخاري).

وبعد قتل حرام بهذا الشكل الخسيس. استنفر زعيم القبيلة بني عامر لفوره إلى قتال الباقين من المعلمين المسلمين، ولكنهم أبوا عليه ذلـــك بسبب البراء، فاستنفر القبيلتين اللتين كانتا قد ذهبتا إلى الرســـول ﷺ تطلب منه المعلمين وقبائل أخرى معهم، فأجابته قبائل عصية ورعـــل وذكوان، وهاجموا وفد رسول الله.

و لم تجْد مناشدتهم الواضحة السهلة أثرًا عند المعتدين عندما قـــالوا لهم إنهم قد جاءوا للتبليغ والتعليم وليس للحرب والقتـــال. فـــأعملوا فيهم ضربًا وتقتيلاً حتى قتلوهم جميعًا، السبعين، ما عدا ثلاثة. أحدهم كان أعرج، وكان قد تسلق قمة جبل قبل بداية المنازلـــة، والاثنـــان الآخران كانا يرعيان سرح المسلمين، وهما عمرو بن أميّة الضـــمري والمنذر بن عقبة بن عامر، فلما عادا وجدا ستة وستين من أصـــحابهم مقتولين. فتشاورا وقال عمرو بضرورة إبلاغ الرسول ﷺ عما حدث، وعارض المنذر مغادرة المكان الذي أمرهم أميرهم بالانتظار فيه، وراح وحده يقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأُسِر عمرو ابن أميـــة،

فلما أخبر أنه من مضر، جز عامر ناحيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

كان في القتلى عامر بن فُهَيرة، الذي اعتقه أبو بكر رضي الله عنه، قتله جبّار الذي أسلم بعد ذلك. وذكر جبّار أن سبب تحوّله للإسلام كانت هذه المذبحة الهائلة للمسلمين. وقال: "عندما أردت قتل عامر سمعته يقول: "فزتُ ورب الكعبة"، فسألته: يا عامر، لماذا يقول المسلم شيئًا كهذا عندما يلقى حتفه؟ فأجاب عامر موضحًا: إن المسلمين يرون الموت في سبيل الله سعادة ونصرًا". وتأثر جبار تأثرا عميقًا بهذه الإجابة، فبدأ في دراسة منظمة للإسلام، تُوّجَت بإسلامه (ابن هشام وأُسد الغابة).

وصلت أخبار الحادثتين إلى المدينة متزامنتين، حادثتان راح ضحيتهما ثمانون رجلاً تقريبًا من المسلمين نتيجة للمكر السيئ. لم يكن هؤلاء القتلى أناسًا عاديين، بل كانوا من حملة القرآن. لم يقترفوا جُرمًا، ولم يُشكلوا خطرًا على أحد، ولم يدخلوا في معركة، بل وقعوا في شباك العدوّ بسبب كذبة قيلت تحت اسم الله والدين. هذه الحقائق كلها تدل بدلالة قاطعة على أن العداوة للإسلام كانت على درجة كبيرة من العمق والتصميم. وفي المقابل، فإن حماسة المسلمين وحميتهم للإسلام كانت على نفس الدرجة من العمق والتصميم.

المعركة مع بني المصطلق

بعد معركة أحُد حدثت مجاعة خطيرة في مكة، وقد قام الرسول ﷺ بجمع ذخيرة من المؤن لمساعدة فقراء مكة في أزمتهم القاهرة،

بصرف النظر عن كل العداوة التي يحملونها له في مكة، وبصرف النظر عن كل المكائد التي كانوا يمارسونها لنشر النفور منه في أرجاء الجزيرة العربية كلها. ولقد استمرت كراهيتهم له دون أن تهدأ أو تخفّ، بل في الحقيقة صارت أسوأ وأشدّ، حتى إن القبائل التي كانت شديدة التعاطف مع المسلمين، صارت تحمل لهم العداوة والبغضاء، ومنهم كانت قبيلة بني المصطلق.

فقد كان لهم علاقات حسنة مع المسلمين، ولكنهم الآن صاروا يعدّون العدّة للهجوم على المدينة، ولما سمع الرسول ﷺ عن استعداداتهم للعدوان، أرسل رجالاً لتقصّي الحقيقة، وعاد الرجال وأكدوا الأخبار. وقرر الرسول ﷺ التحرّك للقاء هذا الهجوم الجديد، وبناء عليه فقد حشد قوّة وقادها إلى ديار بني المصطلق، وعندما لقيَ المسلمون العدوّ حاول الرسول ﷺ إقناعهم بالانسحاب دون قتال فأبوا، وفي ساعات قلائل حدث الاشتباك وهُزم العدو.

ولأن كفار مكة كانوا قد عقدوا العزم على خلق الفساد والإساءة للمسلمين، والقبائل الصديقة كانت تتحوّل إلى العداء والعدوان، فقد غامر المنافقون في هذه المناسبة بالاشتراك في المعركة إلى جانب المسلمين، ولعلهم ظنوا أن الفرصة قد حانت للنيْل من الإسلام. غير أن معركة بني المصطلق انتهت بالنصر في ساعات قلائل، ولم يجد المنافقون فرصة للإضرار بالمسلمين. وقرر الرسول ﷺ البقاء في ديار بني المصطلق بضعة أيام، وخلال ذلك نشب عراك بين واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار على الاستقاء من بئر هناك. وكان المسلم

المهاجر عبدًا محرّرًا، فضرب الأنصاري الذي صاح: "يا للأنصار". وصاح الآخر: "يا للمهاجرين". وغلب الحماس على الناس، ولم يتبين أحد ماذا حدث، وسل الشباب الصغار من الفريقين سيوفهم، وظنها عبد الله بن أبي بن سلول فرصة جاءت إليه من السماء، فقرر أن يصب الوقود على النار قائلاً: "لقد ذهبتم بعيدًا في إكرام المهاجرين، ولقد أدارت المعاملة الطيبة رءوسهم، والآن صاروا يكاثرونكم بكل سبيل". ولعله ظن أن كلامه سيؤدي إلى النتيجة المطلوبة، أو لعله تصوّر أن النّزاع سوف يتطوّر ليكون ذا خطورة بالغة، ولكن ذلك لم يحدث. لقد أخطأ عبد الله بن أبيّ في تقدير الآثار السيئة لخطابه على الأنصار، واستمر موغلاً في تصوّره أن الأنصار قد اقتنعوا بحديثه فقال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ". (البخاري)

لقد قصد نفسه بقوله: الأعزّ، وقصد الرسول ﷺ بقوله: الأذلّ. وحالما قال ذلك، أدرك المؤمنون المخلصون من المسلمين حقيقة الأذى الكامن والضرر المتربّص في ذلك الحديث، وأحسّوا أن ما استمعوا إليه من كلام لم يكن كلامًا بريئًا، كان الكلام للشيطان الذي جاء ليقودهم إلى الضلال. ووقف رجل شاب وأبلغ الرسول ﷺ بالأمر، فأرسل إلى عبد الله بن أبي بن سلول وصحبه وسألهم عما حدث، فأنكر عبد الله هو وصحبه أنهم فعلوا شيئًا من ذلك، أو أنهم ساهموا في هذه الحادثة.

ولم يقل الرسول ﷺ شيئًا، ولكن الحقيقة بدأت تظهر وتنتشر، وبعد ساعات وصلت أنباء الحادثة إلى سمع ابن عبد الله ابن أبي ابن

سلول واسمه "عبد الله"، وفي الحال ذهب لرؤية الرسول ﷺ وقال له: "يا رسول الله، لقد أهانك أبي، وعقابه على ذلك هو الموت، فإذا رأيتَ ذلك فإني أريدك أن تأمرني بقتله، فإنك لو أمرت أحدًا غيري بذلك فقتله، فربما كبر عليّ أن أرى قاتل أبي يمشي على الأرض فأقتله فأغضب الله ويعذبني".

ولكن الرسول ﷺ لم يوافق على قتل عبد الله بن أبيّ، وذكر لابنه أنه سيستمر في معاملة أبيه برحمة وتقدير. وعندما قارن ذلك الشاب عبد الله خيانة والده وجفاءه مع رحمة وعطف وكرم الرسول ﷺ، عاد إلى المدينة مليئًا بغضب مكتوم ضد أبيه. وفي الطريق إلى المدينة أوْقف والده وقال له إنه لن يدعه يدخل المدينة حتى يسحب الكلام الذي قاله ضد رسول الله، وقال له: "إن اللسان الذي قال إن الرسول هو الأذل وأنت الأعز، يجب أن يقول الآن إن الرسول هو الأعز وإنك أنت الأذل، ولن أدعك تذهب حتى تقول ذلك". وصُدم عبد الله بن أبي بن سلول وخاف، وقال: "حقًّا ما قال ابني؛ إن محمدًا هو الأعز وأنا الأذل". وعند ذلك أفسح عبد الله لأبيه الطريق. (ابن هشام ج٢)

لقد قلنا من قبل إن هناك قبيلتين يهوديتين أقصيتا خارج المدينة من جراء إساءاتهما الخبيثة، ومكرهما السيئ، والمؤامرات التي تسببت في قتل بعض المسلمين.

كانت بنو النضير إحدى القبيلتين، وقد هاجر بعضهم إلى الشام، وذهب الباقون إلى خيبر؛ وهي بلدة تقع في شمال المدينة. كانت خيبر مركزًا يهوديًا حصينًا جدًا في الجزيرة العربية، وراح اليهود الذين

هاجروا هناك يعملون على إثارة العرب ضد المسلمين. كان أهل مكة بالفعل أعداء ألداء للإسلام، و لم يكونوا في حاجة إلى أية إثارة جديدة تحمّسهم ضد المسلمين، وكذلك الشأن مع غطفان من نجد ؛ فكانوا يكرهون المسلمين أيضًا بسبب صداقاتهم لأهل مكة. وقد اعتمد اليهود الذين استقرّوا في خيبر في تنفيذ مؤامراتهم على قريش في مكة، وغطفان في نجد، بالإضافة إلى أنهم خطّطوا كي ينقلب بنو سليم وبنو أسد ضد الإسلام. ونجحوا أيضًا في إقناع قبيلة بني سعد التي كانت تحالفهم، كيْ يتّحدوا مع أهل مكة في حلف يجابه الإسلام. وبعد مكائد عديدة وتدابير طويلة الأمد، تم تنظيم اتحاد كونفدرالي لحرب المسلمين، وكان هذا الاتحاد يضم أهل مكة، والقبائل المقيمة في الأراضي المحيطة بمكة، وقبائل نجد، ومعهم القبائل التي كانت تقيم في الأراضي الواقعة شمال المدينة.

غزوة الخندق

في السنة الخامسة للهجرة، احتشد جيش ضخم قدّر المؤرخون قوّته بعدد يبلغ عشرة آلاف أو أربعة وعشرين ألف رجل، ولكن جيشًا يحتشد من القبائل المختلفة في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكون تعداده عشرة آلاف، لذلك تبدو الحقيقة أقرب إلى الأربعة والعشرين ألف مقاتل؛ ولعلهم كانوا ثمانية عشر أو عشرين ألفًا.

و لم تكن المدينة التي يرغب كل هذا الحشد في مهاجمتها سوى بلدة متوسطة الحجم، لا تستطيع على الإطلاق أن تقاوم غزوًا منسقًا تقوم

به كل الجزيرة العربية. كان تعداد المدينة إذ ذاك لا يتعدّى ثلاثة آلاف من الذكور، بما في ذلك الشيوخ والشباب والأطفال. وفي مواجهة هذا التعداد السكاني، حشد العدوّ جيشًا من عشرين ألفًا إلى أربعة وعشرين ألفًا من الرجال الأشداء، المتمرّسين على الحرب وفنون القتال. وحيث إنهم جاءوا من الأجزاء المختلفة في الجزيرة العربية، فقد أُحسن اختيارهم ليكونوا ضمن هذا الجيش.

ومن ناحية أخرى، كان كل من يمكن استدعاؤهم لمقاومة هذا الجيش الجرّار، هم جميع السكان الذكور في المدينة، ويمكن الحكم على احتمالات نجاح مواجهة مثل هذا العدد الهائل الذي كان على سكان المدينة أن يناجزوه، فقد كان نِزالاً غير متكافئ إلى أبعد الحدود. فالعدوّ كان يضم من عشرين إلى أربعة وعشرين ألفًا من المقاتلين الأقوياء، بينما لا يكاد يبلغ المسلمون ثلاثة آلاف، هم كل ذكور المدينة كما سبق ذكره، بما فيهم الكبير والصغير.

وعقد الرسول ﷺ اجتماعًا لطلب المشورة، عندما سمع عن الاستعدادات المعادية الهائلة. وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه بين الذين استشارهم الرسول ﷺ، وكان المسلم الأوّل من بلاد فارس. فسأل الرسول ﷺ سلمان عما يفعلونه في بلاده إذا أرادوا الدفاع عن مدينة ضد جيش عرمرم؟ فقال سلمان: إذا لم تكن المدينة حصينة، وكانت قواها المحلية صغيرة للغاية، فإن العادة جرت لدينا على حفر خندق حول المدينة والدفاع عنها من داخله. وقبل الرسول ﷺ الفكرة.

كانت القمم الوَعرة تحف بالمدينة من أحد جوانبها، وكان ذلك يضمن حماية طبيعية من هذا الجانب. جانب آخر مملوء بالدروب الضيقة المكتظة بالسكان المتقاربين، ومن هذا الجانب فإن المدينة لا يمكن مباغتتها دون علم سكانها. وفي الجانب الثالث كانت غابات النخيل وبعض البيوت. وعلى مسافة منها حصون القبيلة اليهودية بني قريظة. وكان المسلمون قد عقدوا عهدًا مع بني قريظة للتعايش في سلام وللدفاع المشترك، ولذلك كان هذا الجانب يُعتبر آمنًا أيضًا من هجوم العدو.

في الجانب الرابع كان هناك سهل منبسط مفتوح، وكان الخوف أن يهجم العدوّ من هذا الجانب لأنه الأكثر احتمالاً، ولذلك قرر الرسول ﷺ حفر خندق على هذا الجانب المفتوح لمنع العدوّ أن يباغت المدينة بالهجوم. ووُزّعت المهمّة بين المسلمين، كلّ عشرة أشخاص عليهم حفر عشر أذرع من الخندق، وكان على الجميع حفر ميل كامل بعرض وعمق كافيَين.

وعندما كان الحفر يمضي على قدم وساق، اعترضت صخرة صلبة طريق الحفر، و لم يستطع أحد من المسلمين أن يتمكن منها، فرفعوا تقريرا بذلك للرسول ﷺ فحضر إلى المكان في الحال، وأخذ المعوَل وضرب الصخرة بقوّة، وتطايرت منها بعض الشرارات فصاح الرسول ﷺ عاليا: "الله أكبر". وضرب الصخرة ثانية، ومرة أخرى تطاير الشرر فصاح الرسول ﷺ ثانية: "الله أكبر". وضرب الصخرة ضربته الثالثة، وتطاير الشرر كذلك، فهتف الرسول ﷺ: "الله أكبر". وتفتّتت

الصخرة إلى شظايا، وسأل الصحابة رسول الله عن كل ذلك، ولماذا قال الله أكبر مرارًا؟

وأجاب بما معناه:

لقد ضرب الصخرة بهذا المعوَل ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث رأى مشاهد مجد الإسلام تُوحَى إليه وتنكشف له. فرأى في الشرارات الأولى قصور الشام في إمبراطورية الروم، وأُعطيَت له مفاتيح تلك القصور. وفي المرة الثانية رأى قصور فارس في المدائن قد أضاءت، وأعطيَت له مفاتيح ملك الفُرس. وفي المرة الثالثة رأى أبواب صنعاء وأعطيَت له مفاتيح مملكة اليمن، وأخبرهم أن هذه وعود الله وأنه يثق فيها، وحثّهم على أن يتوكلوا على الله، ولن يضرهم العدوّ، إلا أذىً. (الزرقاني ج ٢ وفتح الباري ج ٧)

ومن وجهة النظر العسكرية الاستراتيجية، فلم يكن من الممكن حفر خندق عظيم نظرًا لقلة عدد القوّة العاملة للمسلمين، لكن بدا هذا الخندق على الأقل كحاجز يؤمّنهم ضد الاقتحام المفاجئ للمدينة، رغم أنه لم يكن منيعًا على العبور، ولقد برهنت الأحداث التالية على ذلك، و لم يكن هناك جانب آخر يناسب العدوّ للهجوم على البلدة، وهكذا بدأ جيش ضخم من رجال القبائل يصل إلى المدينة، وحالما عرف الرسول ﷺ ذلك، خرج إليهم ليدفعهم عنها في ألف ومائتي رجل بعد أن أرصد المجموعة الأخرى الباقية من الرجال للدفاع عن الأجزاء الأخرى للمدينة.

لقد قدّر المؤرّخون عدد المدافعين عن الخندق بتقـديرات مختلفـة، حدّده البعض بثلاثة آلاف، وبعضهم قدّره بألف ومائتي رجل، وقدّره آخرون بسبعمائة، وهي تقديرات يبلغ اختلافها درجة يبدو أن من الصعب التوفيق بينها، ولكن بعد تحليل مختلف القرائن يمكن أن نستنتج صحّة جميع التقديرات المتعلقة بعدد المسلمين المنخرطين في الدفاع عن الخندق، لأنها ترجع في اختلافها إلى مراحل مختلفة في هذه الموقعة.

القتال ضد أحزاب ضخمة

لقد سبق وذكرنا أنه بعد انسحاب المنافقين من أحُد، كان عدد من بقيَ من المسلمين في الميدان سبعمائة، و لم تحدث موقعة الخندق إلا بعد عامين من أحُد، وخلال هذين العامين لم يسجّل التاريخ أن أعـدادًا كبيرة من الناس قد دخلوا في الإسلام.

وليس من المتوقع أن يزيد عدد المسلمين المقاتلين في خلال ذلـك الوقت من ٧٠٠ إلى ٣٠٠٠، كذلك من غير المعقول أيضًا أن تنعدم زيادة عدد المسلمين المقاتلين بين معركتي أحُد والخندق، فقد استـمر دخول الناس في الإسلام، ومن الطبيعي أن نتوَقع ثمة زيادة معقولة بين موقعة أحُد وغزوة الأحزاب (الخندق). ومن هذين الاعتبارين، يبـدو أن التقدير الأصوَب لعدد المسلمين في الموقعة هـو ١٢٠٠ مقاتـل، والسؤال الذي يمكن أن يرد على ذلك هو: لماذا قال بعض المفسـرين إن العدد ٣٠٠٠، وقال البعض الآخر إنه ٧٠٠؟ وإجابتنا على هـذا السؤال هي أن الرقمين يرجعان إلى مرحلتين من مراحل الموقعة.

كانت هناك ثلاث مراحل لهذه المعركة، المرحلة الأولى قبل أن يصل العدوّ إلى المدينة عندما كان المسلمون منغمسين في حفر الخندق، خلال هذا الوقت يمكننا أن نفترض مطمئنين أن الصبيان ونسبة ما من النساء قد جاءوا للمساعدة في إزالة التراب المحتفَر من المكان. ولذلك من المعقول أن تكون أعداد المسلمين الذين اشتركوا في أعمال الحفر قد بلغت ثلاثة آلاف، ويشمل هذا الرقم الصبية وبعض النسوَة. فالصبية كانوا قادرين على المساعدة في حمل الأتربة، وهناك ما يؤكد هذا الافتراض، فلقد دُعي الصبْية إلى الحضور بمجرّد بدء الحفر. والنسوَة اللائي تنافسن مع الرجال دائمًا على المساعدة في كل حروب المسلمين، لا بد أنهن كن مفيدات في أداء الأعمال المساعدة المرتبطة بالحفر، ومن الوجهة الفعلية فلقد ساهم كل سكان المدينة في العملية. ولكن بمجرد حضور العدوّ إلى ميدان المعركة، أمر الرسول ﷺ كل صبيّ دون الخامسة عشرة بمغادرة المكان وترك مشهد العمليات، وسمح لمن هم فوق الخامسة عشرة بالمساهمة في المعركة لو أرادوا. (انظر السيرة الحلبية جزء ٢)

ومن ذلك يتبيّن أن عدد المسلمين وقت الحفر كان يفوق عددهم عند بدء المعركة، فقد انسحب الصبْية والنسوَة ولم يبق عند الخندق سوَى المقاتلين من الذكور البالغين وحدهم، وهؤلاء هم الذين ذكرت بعض التقديرات أن عددهم كان ١٢٠٠ مقاتل.

بقي التقدير الثالث الذي لم نبيّنه حتى الآن، وهو ذلك الذي ذكر أن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمائة مقاتل، ونرى أن هذا

التقدير كان صحيحًا أيضًا. وقد طرحه ابن اسحاق وهو ثقة، كما أيّده فيه ابن حزم، ولذلك من الصعب أن نشكّ في مصداقيته. وعند مراجعة التفاصيل المتعلقة بهذه المعركة، يتبين لنا أن تقييم هذا العدد كان صحيحًا. فقد حدث أن نقض بنو قريظة الحلف الذي عقدوه مع المسلمين بالاشتراك معهم في الدفاع عن المدينة إذا تعرّضت للعدوان. وكان قد عُهِد إليهم بالدفاع عن جزء من المدينة. فلما تبيّن للرسول ﷺ أن بني قريظة قد خانوا عهدهم وعلم بنيّتهم الخبيثة بالهجوم على المدينة من الخلف، رصد حراسة بقوّة من المسلمين في ذلك الجزء من المدينة المعرّض للهجوم من طرف بني قريظة. ومن المعروف أن الرسول ﷺ أرسل فرقتين إحداهما مؤلفة من مائتي رجل والأخرى من ثلاثمائة، لحماية جزأين من المدينة بمجرد أن بلغه نبأ خيانة بني قريظة، وبالتالي فلم تعد النساء والأطفال في مأمن، وأمر الرسول ﷺ القوّة المرسلة أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير ليعلم بقية جيش المسلمين أن النساء والأطفال آمنون. وتكشف هذه التفاصيل صحة تقدير ابن اسحاق بأن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمائة مقاتل، لأن انسحاب ٥٠٠ رجل من ١٢٠٠ لإرسالهم لظهر المدينة يؤدّي إلى بقاء ٧٠٠ مقاتل، هم الذين اشتركوا في المعركة ضد الأحزاب عند الخندق.

ولهذا فإن نتيجة التقديرات الثلاثة لعدد جيش المسلمين في معركة الخندق كانت صحيحة، وعلى ذلك لم يكن لدَى الرسول ﷺ سوَى ٧٠٠ رجل فقط ليدافعوا عن الخندق. صحيح أن الخندق كان قد تم حفره، ولكن كان يبدو من المستحيل على جيش المسلمين أن يواجه

جيشًا بهذه الضخامة، ويردّه على الأعقاب حتى ولا بمساعدة الخندق، ولكن المسلمين كعادتهم وثقوا في الله ربهم وتوكلوا على معونته، وانتظروا جيش العدوّ، بينما أرسلوا الأطفال والنساء إلى منطقتين من البلدة بدتا آمنتين في ذلك الوقت.

وعندما بلغ العدوّ الخندق أخذته الدهشة والذهول، لأن العرب في الجزيرة العربية لم يألفوا هذه الحيلة من قبل في أيّة معركة، لذلك قرروا أن يضربوا خيامهم على جانب الخندق الذي هم عليه، حتى يتدبروا أمرهم ويبحثوا أفضل الطرق للهجوم على المدينة. فقد كان جانب منها يحميه الخندق، والجانب الثاني به قمم وعرة ذات حصانة طبيعية، وعلى جانب ثالث توجد بيوت حجرية مع حدائق النخيل والبساتين، فكان من المستحيل على العدوّ أن يباغت أيّ جانب من المدينة. وعقد قادة العدوّ مؤتمرًا جامعًا، وقرروا أنه قد بات من الضروري استمالة بني قريظة إليهم، وفصلهم عن المسلمين وحلفهم، وأن يطلبوا منهم الانضمام إلى الأحزاب في هذا الهجوم الشرس والحرج على المدينة، وكان كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يفسحوا طريقًا لجيش الأحزاب إلى البلدة. وفي النهاية اختار أبو سفيان حُيَيّ بن أخطب؛ زعيم قبيلة بني النضير اليهودية، والتي تم نفيها من المدينة، والتي كانت المحرّض الأساسي للقبائل العربية ضد المسلمين، وكلفه أن يتفاوض مع بني قريظة للحصول منهم على تسهيلات تمكنهم من الهجوم على المدينة من الخلف. وذهب حُيي بن أخطب إلى الحصن اليهودي كي يلقَى قائد بني قريظة. وفي البداية رفضوا رؤيته، لكنه لما شرح باستفاضة

كيف أن هذه اللحظة هي فرصتهم لدحر المسلمين، نجح في استمالة كعب، أحد رجالات بني قريظة، وأوْضح له أنّ العرب عن بكرَة أبيهم قد خرجوا جميعًا للهجوم على المسلمين والقضاء عليهم، وأنّ الجيش الذي يقف على الجانب الآخر للخندق ليس جيشًا عاديًا، بل هو بحر يموج بالرجال الأشدّاء الذين يستحيل على المسلمين أن يقاوموهم. وأخيرًا تم الاتفاق على أنه بمجرد أن ينجح المشركون في اقتحام الخندق، فإنّ بني قريظة سيهاجمون هذا الجزء من المدينة الذي أوْدع فيه الرسول ﷺ كلّ النساء والأطفال طلبًا لسلامتهم. وبدوا متأكدين أن هذه الخطة كفيلة بتهشيم مقاومة المسلمين، وستكون بلا شك فخًّا مميتًا لقوم النبيِّ ﷺ؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً. وحقًّا لو أتيح لهذه الخطة ولو نصيب محدود من النجاح، لكلفت المسلمين غاليًا، ولجعلت كل شيء صعبًا شديد التعقيد بالنسبة إليهم، فلن يكون لهم مخرج من هذه الورطة القاتلة.

خيانة بني قريظة

كان بنو قريظة كما أسلفنا في حلف مع المسلمين، وحتى إذا لم يكونوا قد ساهموا في الحرب مع المسلمين، فقد كان المتوقع منهم على الأقل أن يقوموا بحجز العدوّ من جانبهم وإعاقته، ولهذا السبب فقد ترك الرسول ﷺ هذا الجانب في أوّل الأمر بلا حراسة على الإطلاق. وكان بنو قريظة يعلمون أن المسلمين يثقون بحسن نيتهم، ولهذا عندما قرروا الانضمام إلى أحزاب العرب، فقد اتفقوا ألا يكون هذا

الانضمام جهارًا واضحًا، حتى لا يتنبّه المسلمون ويتّخذوا الخطوات اللازمة لحماية المدينة من جانب بني قريظة. لقد كانت الخطة شديدة الخطورة ومحبوكة الأطراف.

وعندما تم الاتفاق على مهاجمة المسلمين في المدينة من جانبين، راح جيش أحزاب العرب يحاول اقتحام الخندق، ولكن مرّت عدّة أيام دون تحقيق أيّة نتيجة. ثم طرأت لهم فكرة، أن يجمعوا رُماقم على مرتفع، ويأمروهم أن يهاجموا المجموعات المدافعة عن الخندق من المسلمين، وأن يقف هؤلاء على حافة الخندق تفصلهم مسافات قصيرة، وعندما تلوح من المسلمين أيّة أمارات تتيح إحداث ثغرة ضعيفة، يعبر الكفار الخندق على الفور بمساعدة فرساهم الأكفاء.

لقد تصوّروا أهم إذا كرّروا الهجوم فسيمكّنهم هذا من الحصول على رأس جسر في الجانب المسلم، بحيث يستطيعون أن يعبروا وتتجمّع قوّاهم عليه للقيام بهجوم كاسح على البلدة. وهكذا وقع هجوم بعد هجوم، واضطر المسلمون المدافعون إلى القتال دون انقطاع. وفي أحد أيام القتال هذه، ظلوا منخرطين في دفع هذا الهجوم المتكرّر حتى فاتتهم صلاة من صلواقم اليومية عن موعدها المحدد. وقد حزن الرسول ﷺ بشدة من أجل ذلك وقال: "مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ". وتدل هذه الحادثة على عنف الهجوم المعادي، كما تدل كذلك على أن عناية الرسول ﷺ واهتمامه أولاً وأخيرًا كان موجهًا إلى عبادة الله تعالى.

صارت المدينة محاصرة من كل الجوانب، كما صار أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً يواجهون موتًا محققًا، وأصاب البلدة كلها شعور بالجزع، ولكن ظل تفكير الرسول ﷺ مرتبطًا بالحفاظ على أداء الصلوات في أوقاتها المحددة. إن المسلمين لا يعبدون الله مرّة واحدة كل أسبوع شأن المسيحيين والهندوس، بل هم ملتزمون بالصلاة خمس مرات كل يوم. وعندما تنشب المعارك يكون من الصعب أداء صلاة واحدة في الجماعة، ناهيك بالحديث عن خمس صلوات في اليوم في جماعة. ولكنّ الرسول ﷺ كان يدعو إلى الصلاة الجامعة خمس مرات كل يوم حتى أثناء المعركة، ومع ذلك يصيبه الألم عندما يفوته أداء صلاة واحدة من هذه الصلوات بسبب هجوم العدوّ.

كان العدوّ يهاجم من الأمام، وخطّط بنو قريظة للهجوم من الخلف، ولكن بطريقة لا تؤدّي إلى تنبيه المسلمين إلى الخطر. لقد أرادوا دخول المدينة من ظهرها، وقتل كلّ النساء والأطفال المتحصّنين هناك. وأرسل بنو قريظة جاسوسًا ذات يوم ليرَى إن كان الحرّاس قد أرصدوا لحماية النساء والأطفال، وما هي قوّتهم. كان هناك حصن احتمت فيه بعض الأسر، وقد اعتبره العدو هدفًا خاصًا مهمًّا. وجاء الجاسوس، وأخذ يطوف بالحصن ويحوم حوله بريبة، وبينما هو كذلك إذا بصفية بنت عبد المطلب عمّة الرسول ﷺ قد رمقته، ولم يكن هناك سوَى رجل واحد في نوبة حراسته الواجبة، وكان مع ذلك مريضًا. وأخبرته صفية بما رأت، واقترحت عليه أن يقبض على هذا الجاسوس حتى لا يخبر العدو عن خلوّ حصن الأطفال والنساء من الحماية في ذلك الجزء من

البلدة. ولكن لم يستطع ذلك المسلم المريض أن يفعل شيئًا، فالتقطت صفية بنفسها عمودا وراحت تقاتل هذا الزائر الطفيلي، وبمساعدة نساء أخريات تمكنت من التغلب عليه وقتله. ولقد تبين بعد ذلك أن الرجل كان بالفعل عينًا لبني قريظة.

أصبح المسلمون متوَجّسين، فقد توَقعوا أن يشنّ عليهم العدوّ هجومًا بعد آخر من هذا الجانب الذي كانوا يظنونه آمنًا إلى حد بعيد، ولكن ثقل الهجوم من الأمام كان شديدًا لدرجة استغرقت كل القوّة المسلمة لمقاومته، ومع ذلك فقد قرر الرسول ﷺ إرسال جزء من القوّة التي معه لحماية النساء والأطفال. وكما سبق ذكره عند مناقشة أعداد المسلمين التي ذكرها المؤرخون في هذه المعركة، فقد أرسل الرسول من الألف ومائتي رجل، خمسمائة رجل ليقوموا بحماية النساء، ولم يبق إذن للدفاع عن الخندق سوى سبعمائة رجل، يقاتلون عدوًّا يتراوح تعداده من ثمانية عشر إلى عشرين ألفًا. ومع ذلك لم يفقد الكثير من المسلمين رباطة جأشهم إزاء الحشود الهائلة التي كان عليهم أن يواجهوها. وذهبوا إلى الرسول ﷺ وبيّنوا له كم كان الوضع حرجًا، وكيف أنه صار يبدو من المستحيل إنقاذ المدينة. وطلبوا منه أن يدعو الله تعالى، وطلبوا منه كذلك أن يعلمهم دعاء خاصًا بهذه المناسبة. وطمأنهم الرسول ﷺ ألا يخافوا وأن يدعوا الله أن يقيهم من ضعفهم، وأن يثبّت قلوبهم ويؤمّن روعاتهم ويُذهب عنهم الريب. وتوجّه هو إلى الله ﷻ بالدعاء التالي:

"اللهم مُنْزِل الكتاب سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم." (البخاري، كتاب الجهاد والسير).

ودعا ثانية:

"اللهم يا سميع الدعاء من البائسين والمحزونين، يا مجيب الخائفين، أذهب عني حزني وغمّي وخوفي، أنت الأعلم بما حشدوا لي أنا وأصحابي" (الزرقاني)

أصبح المنافقون أكثر قلقًا وأشدّ توَترًا من المسلمين الآخرين في القوة المسلمة، وتلاشَى من قلوبهم كل احترام لاعتبارات الشرف والاحترام للجانب الذي كانوا فيه، أو لأمن مدينتهم ونسائهم وأطفالهم. ولما كانوا قد توَقعوا الخزي والهزيمة، أرادوا ألا يحدث هذا في وجودهم. لذلك بدأوا ينسلون الواحد بعد الآخر، تاركين المسلمين ومتعللين بأعذار هزيلة. وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك في الآية ١٤ من سورة الأحزاب حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾

وقد وصف القرآن المجيد في الآيات التالية حالة المعركة في تلك اللحظة، والظروف التي أحاطت بالمسلمين وأحوالهم إزاءها:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ (سورة الأحزاب: ١١-١٤)

وقد ذكّر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات، كيف هوجموا من الأمام بواسطة الأحزاب المتّحدة من القبائل العربية، ومن الخلف بواسطة اليهود، وذكّرهم بمدى الكرب الذي كانوا يعانونه حينئذ؛ أبصارهم زاغت، وقلوبهم بلغت الحلقوم، بل بدأ الشك يخالجهم في وعْد الله تعالى. كان المؤمنون إذن في محنة، كانوا في هزّة عنيفة جميعًا، فبدأ المنافقون وضعاف الإيمان يقولون: لقد خُدعنا كلنا بوعود زائفة من الله ونبيه المرسل، وبدأ جزء منهم يوهنون من عزيمة المسلمين الآخرين قائلين لا سبيل أمامنا إلا العودة. كذلك فقد وصف القرآن المجيد سلوك المؤمنين الحقيقيين المخلصين، فقال تعالى في الآيتين ٢٣ و ٢٤ من نفس السورة:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾

لم يكن المؤمنون الصادقون كالمنافقين وضعفاء الإيمان ومرضى النفوس. وعندما رأوا العدد الهائل للعدّو، تذكّروا أنّ الله ورسوله قد أخبرا بذلك بالفعل من قبل، وهذا الهجوم المنسّق من طرف قبائل

العرب لم يكن إلا إثباتًا لصدق الله ونبيه. لــذلك بقــيَ المؤمنــون المخلَصون غير مزعزعين، بل إنهم ازدادوا من روح الطاعة، وامــتلأوا بحماسة الإيمان وحميته. لقد انحاز المؤمنون الصادقون ومالوا بجمعهم مع الله وأوْفوا بعهدهم معه. ونال بعضــهم مبتغــاهم بالفعــل ولقــوا مصرعهم، والآخرون منهم ينتظرون الموت في ســبيل الله لتحقيــق أمنيتهم.

هاجم العدوّ الخندق بشراسة ودون انقطــاع، ونجــح أحيانًــا في عبوره، ونجح مرة أحد قادة العدوّ في المرور عبره، ولكنهم هوجمــوا بشجاعة بالغة من المسلمين فعادوا على أعقابهم. وفي هذه المعركة فقَدَ نوفل حياته، وهو من كبار قادة المشركين وزعمائهم، وكان من عظم مكانته لدى الكافرين أنهم لم يقبلوا ترك جثته عند المســلمين؛ لــذا أرسلوا للرسول ﷺ أنهم يقبلون دفع عشرة آلاف درهم إذا هو أعــاد إليهم جثة زعيمهم هذا، وكان هذا ثمنًا باهظًا لجثة أحد الموتى. وقــد قدّموا عرْضهم دون أيّ إحساس بالذنب، فقد مثّل الكافرون بجثــث المسلمين في أحُد، وكانوا يخشون أن يفعل بهم المسلمون نفس الشيء، ولكن تعاليم الإسلام تختلف عن ذلك، فلقد حرّم الإسلام كلّ صــور التمثيل بالجثث كافّة. وعندما تلقّى الرسول ﷺ عــرْض المشــركين ورسالتهم، قال إن المسلمين ليسوا بحاجة إلى جثة كهــذه، وأنهــم لا يبتغون شيئًا مقابل إعادتها، وإذا كانوا يريدون الجثــة فليأخــذوها. (الزرقاني ج٢، ص ١١٤)

ولا مانع من نقل مقطع في هذا المقام من كتاب السير وليم موير: "حياة محمد" (لندن ١٨٧٨ ص ٣٢٢) يصف بوضوح عنف الهجوم على المسلمين، فيقول:

"في الصباح التالي، وجد محمد كلّ قوات العدوّ وقد اصطفت على طول الخندق في مواجهته، واقتضى ذلك من جانبه يقظة وحذرًا لا يفتران حتى يحبط مناورات العدوّ، فهم على ما يبدو يهدّدون بهجوم عام شامل. ثم انقسموا إلى مجموعات تهاجم المواقع المختلفة للنبيّ ورجاله في سرعة وتوال يبعث على الارتباك. وفي النهاية يحاولون انتهاز فرصة لهم، فربما استطاعوا حشد كل قواتهم تجاه النقطة الأقل حصانة، ومنها يحاولون عبور الخندق تحت غطاء وابل لا ينقطع من رمي السهام القاتلة. وبتكرار المحاولة، حدثت هجمات قويّة من بعضهم نحو المدينة، بل نحو خيْمة النبيّ، من قِبَل قادة مشهورين مثل خالد وعمرو، ولكنّ هذه الهجمات رُدّت على أعقابها بعد هجوم مضاد مستمر ورمي منهمر من السهام، وظل هذا دأبهم طول اليوم. ولأن جيش محمد كان بالكاد كافيًا لحراسة خط دفاعه الطويل، فإنه لم يكن يجد متنفسًا للراحة. وحتى في الليل، فقد ظل خالد مع قوة من فرسانه الأشداء يصعّد هجومه، ويهدّد خط الدفاع، ويهاجم مخافر المسلمين الأمامية والمرصودة على مسافات متكررة مهمة. ولكن كل هذه المحاولات المعادية كانت بلا أثر، و لم يتمّ عبور الخندق".

واستمرت المعركة ليومين، و لم يكن هناك قتال متلاحم يدًا بيد، و لم تُسفك الكثير من الدماء، إذ لم يسقط من جانب العدوّ خلالً

أربع وعشرين ساعة من القتال سوَى ثلاثة قتلى، وخمسة في جانب المسلمين، وجُرح سعد بن معاذ ﵁ زعيم قبيلة الأوْس وأحد المؤمنين المخلصين المحبين لرسول الله. وقد أدّى تكرار الهجوم إلى إحداث بعض الخسائر، مما سهّل الهجوم المتوالي. وتجلت مواقف عظيمة للشجاعة والولاء، ففي ليلة كانت باردة، بل ربما كانت أبرد ليلة في الجزيرة العربية، تروي لنا السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ أنه كان يستيقظ من نومه مرارًا ليحرس الأجزاء التي ضعفت من الخندق، حتى إذا أصابه التعب عاد إلى فراشه لينال شيئًا من الدفء، ثم يذهب ثانية لحراسة الخندق. وفي أحد الأيام بلغ منه التعب مبلغًا حتى بدا تمامًا أنه لا يستطيع الحركة، فقال إنه يرغب أن يحل محله أحد المسلمين المخلصين ليريحه قليلاً من الجهد البدني في حراسة الخندق في برد الليل. ولفوره سمع صوتًا، وكان لسعد ابن أبي وقاص ﷺ، ولما سأله عن سبب مجيئه قال إنه جاء لحراسته. فقال الرسول ﷺ إنه ليس في حاجة لأن يحرسه أحد، والأوْلى بسعد أن يحرس ذلك الجزء من الخندق الذي أصابه الدمار حتى يكون المسلمون في أمان. فذهب سعد للمهمة، واستطاع الرسول ﷺ أن يحصل على قسط من الراحة. ولعلها كانت من المصادفات أنه لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة، وهدّدت سلامته بعض الأخطار، كان سعد بن أبي وقاص أيضًا هو الذي ذهب لحراسته.

وفي مناسبة أخرى في ذلك اليوم العصيب، سمع الرسول ﷺ صوت سلاح، فسأل عمّن يكون، وجاءت الإجابة بأنه عَبَّاد بن بِشْر ﵁. فسأله الرسول ﷺ عما إذا كان معه أحد، فقال عَبَّاد إنه معه بعض

أصحاب رسول الله، وأنهم يحرسون خيْمته. فطلب منهم الرسول ﷺ أن يدَعوا خيْمته، وأن يذهبوا بالحريّ لقتال المشركين الذين يريـــدون عبور الخندق. (السيرة الحلبية ج٢)

وكما ذكرنا من قبل، حاول اليهود أن يدخلوا المدينة خفية، وفقد جاسوس يهودي حياته في المحاولة، وحين عرفوا أن كيدهم انكشـــف بدأوا في التعاون جهْرة مع الأحزاب. ولم تقع محاولة منسّقة للــهجوم من الخلف، لأن هذا الجانب كان ضيّقًا، وبوجود الحـــرس المســلم المرصود هناك صار من المستحيل القيام بهجوم كاسح. ولكــن بعــد بضعة أيام، قرر اليهود والأحزاب الوثنيون القيــام بهجــوم متــزامن ومفاجئ على المسلمين.

قوات الأحزاب تتشتت

ولقد أحبط الله هذه الخطة البالغة الخطورة بتدبير معجز. فإن نُعَيْم بن عبد الله من قبيلة غطفان مال إلى الإسلام، وكان قد جاء مع جيش الوثنيين يتحين الفرص لكي يُعين المسلمين. لم يكن يســتطيع عمــل الكثير بمفرده، ولكنه لما رأى اليهود قد ضمّوا جهــودهم إلى جهــود العرب ليناصروهم، وبدا أن المسلمين يواجهون موتًا محتّمًا وهلاكًــا مؤكدًا، عقد نُعيْم العزم على أن يفعل ما في وسعه لإنقاذ المســلمين. لقد كان يكتم إسلامه، فذهب إلى بني قريظة وحــادَث رؤســاءهم، وسألهم عما هم صانعون إذا ذهبت جيوش العرب، وماذا يتوقعون أن يصنع بهم المسلمون. كان بعض اليهود يميل إلى البقاء على عهده مــع

المسلمين، و لم يكن هؤلاء على استعداد لتحمّل العقاب الشديد بسبب البعض الآخر الذين تبين أنه لا عهد لهم.

وقد بعثت هذه التساؤلات العقلانية الخوف في نفوس القادة اليهود، فسألوه عما يجب عليهم فعله. فنصحهم نُعيْم أن يطلبوا سبعين رهينة من المشركين. فإذا كان المشركون جادّين في القيام بهجوم منسّق معهم، فلن يرفضوا الطلب. وأوصاهم أن يقولوا للمشركين إن هؤلاء السبعين سوف يقومون بحراسة بعض الأماكن الهامة، بينما يقومون هم بأنفسهم بمهاجمة المسلمين من الخلف. وبعد هذا الحديث مع اليهود، ذهب نُعيم إلى قادة جيش المشركين وسألهم عما هم صانعون إذا عاد اليهود إلى حلفهم مع النبيّ، أو إذا حاولوا استرضاء المسلمين بطلب رهائن من المشركين ثم سلموهم للمسلمين. وقال لهم إنه من الأهمية بمكان أن يختبروا إخلاص اليهود، فيطلبوا منهم المساهمة في هجوم عام شامل على الفور الآن. وتأثر قادة المشركين بهذه النصيحة وعملوا بها، فأرسلوا رسالة إلى اليهود يطلبون منهم الهجوم فورًا على المسلمين من الخلف، لكي يتمكن جيش الأحزاب من الهجوم من المقدّمة. فأجاب اليهود بأن اليوم التالي هو يوم السبت، وأنهم لا يستطيعون أن يقاتلوا المسلمين في هذا اليوم. وقالوا أيضًا إنهم يعيشون في المدينة بينما يعيش الأحزاب خارجها، فإذا حدث أن انسحب العرب من المعركة، فماذا يكون مآلهم مع المسلمين. ولذلك طلبوا من الأحزاب أن يبعثوا إليهم بسبعين من رجالهم كرهينة حتى يمكنهم في تلك الحال أن يقوموا بدورهم في الهجوم. وبدأ الشك يعمل

في القلوب. ورفض الأحزاب أن يجيبوا اليهود إلى طلبهم، وأدركوا أن لو كان اليهود مخلصين فعلاً في اتفاقهم، فليس هناك ما يستدعي تقديم مثل هذا الطلب. وساورهم الشك في صدق نيّة اليهود، بينما شك اليهود في صدق نيّة الأحزاب. وكما يقال، إن الشك يقضي على الشجاعة، فتخاذل الفريقان، ودبّت الفُرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم، وفقدت جيوش العرب حماسها وحميتها. وعندما جاء المساء، ذهبوا إلى النوم مرهقين بمشاعر الشك والضيق وأشكال الحرج. فذهب الجند والقادة إلى خيامهم يملؤهم الإحباط وتسيطر عليهم الكآبة.

ثم حدثت المعجزة، وجاءت مساعدة السماء إلى المسلمين. بدأت الريح القاصفة تعصف، فقوّضت خيام المشركين، ولم تدع قِدرًا إلا أكفأها، ولا نارًا إلا أطفأها، واقتلعت حبال الخيام.

كان العرب يتفاءلون بالنار المشتعلة في المكان، ويتشاءمون من انطفائها. وعندما تصبح النار يوما مطفأة أمام خيمة، فإن سكانها يعتبرون ذلك نذير شُؤم، ويعزمون على التراجع في هذا اليوم، وأن يعودوا بعد ذلك للاشتراك في الهجوم. وكانت الشكوك قد عصفت بالقادة قبل أن تعصف بهم الريح. وعندما حزَم بعض المعسكرين متاعهم للانسحاب، ظن الآخرون أن المسلمين قاموا بهجوم كبير ليلاً. وانتشر هذا الظن بين جموع الأحزاب كما ينتشر الوباء المعدي، وبدأ الجميع يحزم متاعه وينصرف من الميدان. ويُروَى أن أبا سفيان كان نائمًا في خيمته فبلغت مسامعه أخبار الانسحاب المفاجئ لفرق

المشركين، فنهض مرتجفًا، وسارع إلى ركوب جمله الذي كان موثقًا في عقاله، وهمز البعير، ولكن الجمل لم يتحرك. فأشار أصدقاؤه إلى أن الجمل مربوط، وتم حل عقال البعير، وأصبح بإمكانه هو وصحبه أن يخلوا الميدان.

عندما مضى ثلثا الليلة كان قد تم إخلاء المكان تمامًا، واختفى جيش مؤلف من عشرين إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل ومرافق تابع، تاركين خلفهم الميدان خاويا. وفي نفس هذا الوقت تلقّى الرسول ﷺ وحيًا يخبره أن العدوّ قد فر نتيجة لما فعله الله تعالى بهم. وأراد الرسول ﷺ أن يستطلع ما حدث، ورغب أن يرسل أحد أتباعه ليمسح الميدان بعينيه ويعرف ما حدث ثم يقدم له تقريرًا بالأمر. كان الجوّ باردًا كالثلج، ولا عجب أن أطراف المسلمين قد تجمّدت من شدة البرد، حيث إنهم لم يكونوا يرتدون ما يكفي من الملابس لمقاومة البرد. وسمع بعضهم صوت الرسول ﷺ ينادي، وأرادوا أن يجيبوه ولكنهم لم يستطيعوا؛ فقد منعهم البرد تمامًا من القدرة على النطق، ما عدا حُذَيْفة الذي أجاب في صوت جهْوَريّ: "نعم يا رسول الله، ماذا تأمرنا أن نصنع"؟ فنادى مرة أخرى، و لم يجب أحد هذه المرة أيضًا إلا حُذيفة الذي أجاب ثانية. فأمر الرسول ﷺ حُذيفة أن يذهب ويستطلع ميدان المعركة، لأن الله تعالى أخبره أن العدوّ قد ولى الأدبار. فذهب حذيفة قريبًا من الخندق، ومن هناك رأى أنّ العدوّ قد أخلى الميدان، فلم يكن هناك جنود ولا رجال. وعاد حُذيفة إلى الرسول ﷺ فقرأ عليه كلمة الشهادة، وأخبره أنّ العدوّ قد انسحب. وفي الصباح، بدأ المسلمون

يزيلون خيامهم أيضًا، وجمعوا متاعهم ليعودوا أدارجهم إلى المدينة. لقد انتهت محنة خطيرة دامت ما يقرب من عشرين يومًا.

بنو قريظة ينالون العقاب

تنفس المسلمون الصعداء في أمان مرة ثانية، ولكنهم كانوا يعيشون مع بني قريظة في بلدة واحدة، وقد خان بنو قريظة عهدهم مع المسلمين، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه.

جمع الرسول قواته المنهكة وأخبرهم أنهم لا يجوز لهم الراحة الآن، وأمرهم ألا يُصلّوا العصر إلا في بني قريظة، وأن يهاجموا حصونها، ثم أرسل عليًّا رضي الله عنه ليسألهم لماذا نقضوا عهدهم مع المسلمين؟ ولم يبدِ بنو قريظة ندمًا أو أسفًا، أو أيّ ميْل لطلب الصفح، بل إنهم بدلاً من ذلك قاموا بإهانة عليّ رضي الله عنه ورجال الوفد الذين كانوا معه. وبدأوا يسبّون الرسول ﷺ ونساء بيته سبًّا قبيحًا فاحشًا، وقالوا إنهم لا يقيمون وزنًا للرسول، ولم يكن لهم يومًا عهد معه.

وحين عاد عليّ ليطلع الرسول ﷺ على ردّ اليهود، وجده هو والصحابة متجهين نحو حصونهم، ولدى وصوله عاود اليهود سبّ الرسول ﷺ وأزواجه وبناته.

وحرصًا على عدم إصابة الرسول ﷺ بالألم والأذى لسماعه سباب اليهود، فقد اقترح عليّ أن يضطلع الصحابة بمعالجة الأمر دون وجود الرسول ﷺ. وفهم رسول الله المراد، وسأل عليًّا ما إذا كان يرغب به عن سماع سبّهم، فأجاب عليّ بالإيجاب. فذكر الرسول ﷺ أن موسى

كان من بني جلدهم وأقرب الأقرباء إليهم، ومع ذلك فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

واستمر الرسول ﷺ في تقدمه. ونصب اليهود دفاعاتهم وبدأوا يقاتلون، وانضمت إليهم نساؤهم. كان بعض المسلمين يقفون عند أسفل حائط الحصن، فألقت امرأة يهودية حجرًا ضخمًا عليهم عندما لمحتهم فقُتل أحدُهم ويسمى خلادا. وضُرب الحصار عليهم أيامًا، وفي نهايتها أحس اليهود بالعجز عن الاستمرار تحت الحصار، فأرسل زعماؤهم إلى الرسول ﷺ رسالة يطلبون فيها أن يرسل إليهم أبا لبابة رضي الله عنه؛ وهو زعيم من الأوس الذين كانوا في علاقة معهم قديمًا. لقد أرادوا استشارته حول التسوية الممكنة، فأرسل الرسول ﷺ أبا لبابة إلى اليهود، فسألوه عما إذا كان الأصلح لهم هو النّزول والاستسلام وقبول حكم الرسول ﷺ، فقال أبو لبابة إن ذلك هو ما يجب فعله، لكنه في نفس الوقت قام بإمرار أصبعه على عنقه يعطيهم إشارة الموت، وكان ذلك من عند أبي لبابة لا من عند الرسول ﷺ.

لم يكن الرسول قد قال شيئًا لأحد عن هذا الموضوع، ولكن أبا لبابة تصوّر في فكره أن الجريمة التي ارتكبها اليهود لا تستحق إلا عقوبة الموت، فأشار بهذه العلامة متسرعًا، حيث عبر بها عن مصير الموت الذي ينتظرهم. لذلك رفضوا نصيحته المنطوقة، ورفضوا قبول حكم الرسول ﷺ فيهم، ولو كانوا قبلوه فإن أقصى عقاب كان ينتظرهم هو الطرد من المدينة، ولكن حظهم السيء دفعهم لرفض حكم الرسول ﷺ، وأرسلوا يقبلون حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، زعيم

حلفائهم من الأوس؛ راضين بأيّ عقاب يعرضه سعد عليهم. ودبّ خلاف بين اليهود، فبدأ بعضهم يقول إن اليهود هم الذين نقضوا الميثاق مع المسلمين، وإن المسلمين أثبتوا أنهم على العكس أمناء وصادقين، وأن دينهم أيضًا صادق. وهؤلاء الذين قالوا ذلك انضموا للمسلمين. كذلك قام زعيم من زعماء اليهود، هو عمرو بن سعدي، يلومهم ويُبكّتهم قائلاً: "لقد نكثتم العهد، ورجعتم في كلمتكم التي قطعتموها على أنفسكم، والطريق المتاح لكم الآن هو الإسلام أو دفع الجزية".

فقالوا: "أبدًا لن نعتنق الإسلام، ولن نعطي الجزية، الموت أحب إلينا من دفع الجزية". فأجاب عمرو، أنه بذلك يكون قد فعل ما عليه، وقد أعذر إليهم فلا لوم عليه، قال ذلك وغادر الحصن.

ورآه محمد بن مسلمة، قائد مفرزة للمسلمين، فسأله من يكون، وعرف هويته فتركه يمضي في سلام، ودعا محمد ابن مسلمة الله قائلاً: "اللهم أعنّي أبدًا على ستر أخطاء الصالحين".

وما كان يعنيه هو أن هذا اليهودي قد أبدى الندم والأسف، ولام قومه على سلوكهم، والواجب الخلقي يحتّم على المسلمين أن يعفوا عن رجال مثله، ويتركوهم يمضون في سلام. وأنه بتخلية سبيله يكون قد فعل عملاً صالحًا، ودعا الله أن يعينه على أعمال مماثلة مرارًا وتكرارًا. ولما علم الرسول ﷺ بما فعل محمد بن مسلمة، لم يلمه على تركه لهذا القائد اليهودي، بل وافقه ورضي عما فعله.

كان بعض الأفراد فقط من اليهود هم الذين فضلوا قبول السلام والنّزول على حكم الرسول ﷺ، وأما الأغلبية من قبيلة بني قريظة ظلوا على رأيهم، فرفضوا حكم الرسول ﷺ وطلبوا بدلاً من ذلك حكم سعد بن معاذ (البخاري، والطبري). وقبِل الرسول ﷺ طلبهم، وأرسل إلى سعد، الذي كان يرقد جريحًا، أن يأتي ويصدر حكمه على اليهود الذين نكثوا الميثاق. وحالما أعلن الرسول ﷺ قراره، أسرع أفراد من قبيلة الأوس الذين كانوا حلفاء لبني قريظة طويلاً إلى سعد، وضغطوا عليه ليصدر حكمًا في مصلحة بني قريظة، وقالوا له إن الخزرج طالما حاولوا إنقاذ حلفائهم من اليهود، وعلى سعد بدوره أن ينقذ حلفاء الأوس قبيلته . وذهب سعد راكبًا إلى بني قريظة يُحيط به رجال قبيلته من جانبيه يحثّونه ألا يعاقب بني قريظة. وكان كل ما رد به سعد عليهم هو أن الشخص الذي أُسند إليه إصدار حكم من الأحكام يحمل أمانة، وأن عليه أن يؤدّي أمانته بشرف وكرامة، وقال إنه سوف يصدر حكمه واضعًا في حسابه كل الاعتبارات، وأيضًا بلا رهب ولا رغب. وعندما بلغ حصن اليهود رأى بني قريظة مطلين عليه مصطفين على أسوار الحصن ينتظرونه، وفي الجانب الآخر وقف المسلمون. واقترب سعد من المسلمين وسألهم: "أتقبلون حكمي"؟ قالوا: "نعم".

حكم سعد يتوافق مع التوراة

توجّه سعد بدوره إلى بني قريظة وسألهم نفس السؤال، فوافقوا كذلك. عند ذلك توجّه سعد على استحياء إلى الجانب الذي يقف فيه

الرسول ﷺ، وسأل ما إذا كان الجمع في هذا الجانب يقبل حكمه، فلما سمع الرسول ﷺ السؤال قال: "نعم". (الطبرى وابن هشام)

عند ذلك أصدر سعد حكمه حسب تعاليم التوراة، التي تقول:

"حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريم الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحيويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم". (سفر التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

فحسب تعليمات التوراة، لو انتصر اليهود وهُزم الرسول ﷺ، فكل المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً سيلقون مصرعهم. ونعلم من التاريخ أن هذا كان قصد اليهود، وأقل ما كان سيصنعه هؤلاء هو قتل الرجال واستعباد النساء والأطفال، وإتلاف كل ممتلكات المسلمين أو نهبها، فهذه هي التعاليم المدوّنة بسفر التثنية في التعامل مع الأمم المعادية التي تسكن أقطارًا بعيدة.

كانت تربط سعد ببني قريظة علاقة طيبة، وكانت قبيلته في حلف معهم. وعندما رفض اليهود حكم الرسول ﷺ، ورفضوا بذلك الحكم الأخفّ الذي يقضي به الإسلام، قرر أن يُنْزل بهم الحكم البديل، وهو الحكم المكتوب في كتاب موسى ؈.

إن مسئولية هذا الحكم لا يتحمّلها الرسول ﷺ ولا المسلمون، بل يتحمّلها تعليم موسى ؈، ويتحمّلها اليهود الذين عاملوا المسلمين بكل وحشية.

كانت لديهم الفرصة لقبول حكم رحيم، وهو حكم الإسلام الذي كان سيصدره رسول الله، وهو من بعثه الله تعالى رحمة للعالمين. وبدلاً من قبول حكم الإسلام أصرّوا على قبول حكم سعد، و لم يكن لسعد من خيار سوَى أن يُصدر حكمه حسبما ورد في كتاب موسى ؈. وإلى الآن، يقوم المسيحيون دون انقطاع بتشويه سمعة الرسول ﷺ قائلين إنه كان قاسيًا مع اليهود. والسؤال هو: لو كان الرسول قاسيًا مع اليهود، فلم لم يكن قاسيًا مع الشعوب الأخرى أو في المناسبات الأخرى؟

هناك مرات عديدة ألقت شعوب وقبائل بنفسها تحت رحمة حكم رسول الله، و لم يحدث أن ضاع طلبهم للعفو دون جدوَى.

وفي هذه المناسبة أصرّ العدوّ على حكم شخص غير الرسول ﷺ، واختاروه هم بأنفسهم، فقام بدوره كحَكَم بينهم و بين المسلمين، وسأل الرسول ﷺ كما سأل اليهود في العلن أمام الجميع إذا كانوا يقبلون حكمه، أي أنه لم يصدر حكمه إلا بعد موافقة الأطراف عليه

جهارًا. ثم ماذا كان حكمه؟ لم يكن سوى تطبيق لحكم شريعة موسى على المذنبين من اليهود، فلماذا لا يقبلونه؟ ألا يُعدّون أنفسهم أتباعًا لموسى عليه السلام؟ فإذا كان هناك سبب للقسوة، فهو قسوة اليهود على اليهود. لقد رفض اليهود حكم الرسول ﷺ فاستجلبوا بدلاً منه تطبيقًا لشريعتهم الدينية عقوبة لإثمهم.

لو كانت هناك قسوَة تم ارتكابها، فيُسأل عنها موسى عليه السلام إذن الذي سجّل هذه العقوبة للعدوّ المحاصر، وكتب في كتابه أن هذه العقوبة كانت بأمر الربّ، وليس من حق الكُتّاب المسيحيين أن يصبّوا جام غضبهم على نبيّ الإسلام ﷺ، بل عليهم أن يدينوا موسى عليه السلام الذي سجّل هذه العقوبة القاسية، أو لعلهم يدينون الكتاب المقدس الذي سُجّلت فيه هذه العقوبة.

انتهت معركة الخندق، وأعلن الرسول ﷺ أن المشركين لا يغزون المسلمين بعد اليوم، بل يغزوهم المسلمون بدلاً من ذلك. كان المد في طريقه ليتحوّل إلى جزْر، وكان المسلمون في طريقهم إلى الهجوم على القبائل والأحزاب التي طالما هاجمتهم بلا مسوّغ وتحرّشت بهم دون مبرر. ولم يكن كلام الرسول تهديدًا أجوف ، ففي معركة الخندق لم يخسَر الأحزاب شيئًا يُذكر، وكل ما فقدوه هو بضعة رجال. وفي أقل من عام كان من الممكن لهم أن يأتوا لمعاودة الهجوم على المدينة، مع استعداد أحسن وتجهيز أفضل. وبدلاً من جيش تعداده عشرون ألفًا، كان باستطاعتهم رفع العدد في الهجوم الجديد إلى أربعين أو حتى خمسين ألفًا. وهؤلاء لا يصعب عليهم هزيمة جيش من ألف

وخمسمائة. ولكن ها هم المشركون، بعد مُضيّ واحد وعشرين عامًا، وبعد أن بذلوا أقصى ما في وسعهم للقضاء على الإسلام والمسلمين، يهتزّون بعد الفشل المستمر لخططهم. لقد بدأ الشك يساورهم أن يكون دين محمد ﷺ صحيحًا، وأن تكون هذه الأصنام والأوثان القومية مجرد زيف، وأن يكون الله الخالق الذي لا يُرى، والذي يتكلم عنه محمد ﷺ هو الحق.

بدأ الخوف يغزو قلوبهم خشية أن يكون محمد ﷺ على حق، وأن يكونوا هم على باطل، ومع ذلك لم يتجلَّ هذا الخوف على تصرفاتهم. فمن الناحية المادية، أخذ الكافرون يسلكون نفس السلوك الذي عهدوه، وراحوا إلى أوثانهم يتوجّهون إليها بالدعاء كما هي عادتهم، ولكن روحهم الداخلية كانت قد انكسرت. في الظاهر عاشوا حياة المشركين والكافرين، وفي الداخل بدأت قلوبهم تردّد صدى شعار المسلمين أنه لا إله إلا الله.

وكما سبق أن ذكرنا، قال الرسول ﷺ بعد موقعة الخندق: ''الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ''. لقد بلغت درجة تحمّل المسلمين أقصاها، وحان الآن لموجة المد أن تنقلب. (البخاري - كتاب المغازي).

هل أراد رسول الله استمرار الحرب؟

في المعارك التي وقع فيها قتال، كان المسلمون إمّا في المدينة أو خرجوا على مسافة قريبة منها لصد هجوم الكافرين. لم يبدأ

المسلمون هذه المعارك، و لم يُبدوا أبدًا أيّة رغبة في استمرارها بعد أن بدأت، فهم لم يحرصوا بتاتًا على استمرار الحرب.

وعادة عندما تبدأ المعركة بين طرفين، فإنها يمكن أن تنتهي بإحدى طريقتين لا ثالث لهما: إما سلام يُتفق عليه، أو يخضع أحد الطرفين للآخر. وفي المعارك التي وقعت بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، لم يحدث أيّ إلماح إلى السلام، ولا خضع طرف من الأطراف للآخر. صحيح أن القتال كان يتوقف أحيانًا، ولكن لا يمكن القول إن الحرب بينهما قد توقفت في هذه الوقفات المؤقتة. وحسب العرف المعمول به، كان من حق المسلمين أن يهاجموا القبائل المعادية ويجبروهم على الاستسلام، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فعندما كان العدوّ يكفّ عن القتال، كان المسلمون يتوقفون كذلك. كانوا يتوقفون وهم يتصوّرون أن الكفّ عن القتال قد يعقبه كلام عن السلام. ولكن بعدما صار واضحًا أن الحديث عن السلام لا وجود له مع المشركين، ولا يبدو أن لديهم أية نية في الخضوع، فكّر الرسول ﷺ أنه ربما قد حان الوقت لإنهاء الحرب، إما بعقد اتفاق للسلام أو بخضوع طرف للآخر، ولكن لا بد من إنهاء حالة الحرب لكي يحل السلام. ويبدو أنه بعد موقعة الخندق، عقد الرسول ﷺ العزم على تحقيق أحد الأمرين: إما السلام أو الاستسلام. وكان من المستحيل بالطبع أن يستسلم المسلمون للكافرين، فلقد كان وعْد الله لهم هو تمام نصر الإسلام على المشركين الذين عارضوه واضطهدوا المسلمين، وقد أعلن الرسول ﷺ هذا الوعد مرارًا في مكة قبل الهجرة. فهل كان على المسلمين أن

ينادوا بالسلام؟ إن طلب السلام يمكن أن يأتي من الجانب الأقوى أو الأضعف، وعندما يطلب الطرف الأضعف السلام، فإنه بذلك يتنازل مضطرًا - سواء بشكل مؤقت أو على الدوام - عن بعضٍ من أرضه أو دخله، أو يقبل مضطرًا أية شروط أخرى يفرضها العدوّ عليه. وعندما يعرض الجانب الأقوى سلامًا، فإن هذا يعني أنه لا يهدف إلى القضاء على الطرف الأضعف قضاءً تامًا، بل يعني أنه يريد أن يتركه ليحتفظ باستقلال كامل أو جزئي، وذلك في مقابل شروط معينة يفرضها عليه. وفي المعارك التي نشبت حتى ذلك الوقت بين المشركين والمسلمين، فشل المشركون مرة بعد أخرى في تحقيق أهدافهم، غير أن قوّتهم لم تكن قد تحطمت بعد، وكل ما حدث هو أنهم فشلوا في محاولاتهم للقضاء على المسلمين. والفشل في القضاء على العدوّ لا يعني الهزيمة، بل يعني أن الهجوم لم ينجح، وقد ينجح إذا تكرر الهجوم. وهكذا لم يكن أهل مكة قد تلقوا الضربة القاصمة بعد؛ بل كل ما حدث هو فشل عدوانهم على المسلمين. ومن الناحية العسكرية، كان المسلمون قطعًا هم الجانب الأضعف. صحيح أنهم صمدوا في الدفاع عن أنفسهم، ولكنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأقلية الأضعف، الأقلية التي لم تكن قادرة على اتخاذ مبادرة الهجوم، وإن كانت قد نجحت في مقاومة هجوم الأكثرية. ولذلك لم يكن المسلمون قد أسسوا صرح استقلالهم حتى ذلك اليوم، ولو أنهم دعوا إلى السلام لفُهم من ذلك أن دفاعاتهم قد انهارت، وأنهم أصبحوا الآن على استعداد لقبول ما يمليه عليهم المشركون. لذلك فإن عرضًا لطلب

السلام من جانبهم يكون كارثة على الإسلام، وهو يعني إلقاء أنفسهم إلى التهلكة، وقد يبعث الروح من جديد في عدوّ أوْهنته المحاولات الفاشلة المتكررة التي قام بها، وقد تتيح له فرصة لتجديد الآمال وإذكاء الطموحات لديه، وربما ظن الكفار أن المسلمين، رغم نجاحهم في إنقاذ المدينة، إلا أنهم قد صاروا يتشككون في تحقق نصرهم النهائي وتحقيق غلبتهم على المشركين. ولذلك، فلا يمكن أن يصدر الاقتراح بطلب السلام من الجانب المسلم، وإنما يمكن أن يأتي من جانب أهل مكة، وهو الجانب المعتدي، أو من طرف ثالث، إذا كان للطرف الثالث وجود، ولكن لا يوجد طرف ثالث في هذا الصراع، فقد كانت المدينة تقف ضد جميع العرب في الجزيرة العربية. وبذلك فإن المشركين وحدهم هم الذين كان عليهم أن يبادروا المسلمين بالسلام، غير أنه لم تكن هناك علامة واحدة في هذا السبيل، مما يعني أن الحرب بين العرب والمسلمين كان يمكن أن تستمر إلى الأبد. فالمسلمون لا يمكنهم عرض السلام، والعرب لا يريدون عرض السلام، وعلى ذلك فقد بدا أنها حرب أهلية بلا نهاية، على الأقل لمائة سنة قادمة.

كان هناك سبيل وحيد للمسلمين إذا أرادوا وضع نهاية لهذا الصراع، وهم لم يكونوا مستعدين أن يُخضعوا عقولهم وعقائدهم للعرب، وأن يتنازلوا عن حقهم في الإيمان بما يرونه حقًّا، وأن يمتنعوا عن ممارسة شعائر الدين الذي يؤمنون به وعن الدعوة إليه، وفي نفس الوقت، لم تكن هناك أية بادرة لإحلال السلام من جانب المشركين. كان المسلمون قادرين على دفع هجوم المشركين المتكرر، وهذا يعني

أنه ينبغي لهم أن يدفعوا العرب إلى الاستسلام أو إلى قبول السلام، وهذا هو ما قرر الرسول ﷺ أن يفعله.

فهل كانت الحرب هي ما ابتغاه الرسول ﷺ؟ لا. لم تكن الحرب، بل هو السلام الذي أراد الرسول ﷺ أن يقيمه ويُرسي دعائمه. ولو أنه لم يفعل شيئًا في هذا الوقت، فإن الجزيرة العربية كانت ستظل في قبضة الحرب الأهلية، والخطوة التي اتخذها ﷺ كانت هي الخطوة الوحيدة نحو إحلال السلام. لقد سجّل التاريخ وقوع حروب طويلة عديدة، استغرق بعضها مائة عام، والبعض ثلاثين عاما أو نحوها أو أكثر، وما كانت الحروب الطويلة لتستمر إلا بسبب الافتقار إلى خطوة حازمة يخطوها طرف من الطرفين. والخطوة الحازمة كما قلنا ليس لها إلا أحد وجهين، الاستسلام التام أو التفاوض لإقرار السلام.

فهل كان ينبغي للرسول ﷺ أن يتخذ موقفًا سلبيا؟ هل كان ينبغي له أن ينسحب مع قوته الصغيرة من المسلمين، ويقبع خلف جدران المدينة، تاركًا كل شيء آخر في مهب الريح؟ مستحيل. لقد كان المشركون هم الذين بدأوا بالهجوم، ولم تكن السلبية لتعني انتهاء الحرب بل استمرارها؛ فإن السلبية تعني أن للمشركين أن يهاجموا المدينة متى يحلو ذلك لهم، وأن يتوقفوا عن الهجوم أو يعاودوه كما يشاءون. وتوقف المعركة لبعض الوقت لا يعني انتهاء الحرب، وإنما يعني فقط مناورة استراتيجية.